التجـارة والحضـارة
في مشاهدات ابن فضلان

• أ.د. عماد عبد السّلام رؤوف

مقـدّمة:

اختار الخليفـة العبّاسيّ جعفر المقتدر(٢٩٥- ٣٢٠هـ) الفقيهَ البغداديّ أحمد ابن فضلان سـنة ٣٠٩هـ (٩٢١م) ليكون سـفيراً له إلى بلاد قلّما قصدها رحّالة أو سـائح من قبل، ولا شـكّ في أنّ هذا الاختيار لم يكن عشـوائيّا، أو متعجّلا، ومن المؤكّد أنّه استند فيه إلى رأي وزراء ومستشارين ذوي خبرة في مثل هذه الشّؤون.

وكانت هذه السّـفارة تنطوي على جوانب عدّة: دبلوماسـيّة، ودينيّة، وسياسـيّة، وعسكريّة، وتعليميّة في آن واحد، فأمّا الدّبلوماسيّة فهي عقد حلف وصداقة بين الخلافة العبّاسيّة بوصفها الممثّلة السّياسيّة والرّوحيّة للعالم الإسلاميّ، وبين ملك الصّقالبة، وهم السّلاف الشّرقيّون الذين باتوا يحكمون مناطق واسعة في جنوبيّ روسيا وبلاد البلغار.

وأمّا الدّينيّة، فتتمثّل بالعمل على نشر الإسـلام بين شـعوب الصّقالبة، ليكون ديناً رسميّاً لهذه الأمّـة التـي لم تكن تديـن إلى قبيل ذلك العهد إلّا بعبـادة مظاهر الطّبيعـة، وكائناتها، فضلا عن انشاء مسجد ومنبر ليكون أوّل مركز إسلاميّ لنشر الإسلام في تلك البلاد القاصية، وما يجاورها من الأمم. أمّا الجانب العسـكريّ، فيتمثّل بإنشاء حصن يدفع عن ملك الصّقالبة تعدّيات الخزر، الذين كانوا قد أنشـأوا مملكة يهوديّة في أعالي سـواحل قزوين، فأصبحت تهدّد الأمم المجاورة، لا سيما الصّقالبة، وتحاربهم، وتضطرّهم إلى دفع الضّرائب وإيداع الرّهائن.

ولم يكن الامتداد الإسـلاميّ يجري قسراً، وإنّما اسـتجابةً لطلب ملك الصّقالبة نفسـه، بإنشاء صلات طيّبة وجديدة بين الدّولة العبّاسـيّة وبين ما يجاورها من الأمم الوثنيّة، أو الحديثة العهد بالإسـلام، منهم الصّقالبة والخزر والرّوس والبلغـار وآلاف من القبائل المنتشرة في محيط العالم الإسلاميّ.

كما انطوت هذه السّفارة على مهام تعليميّة، تتمثّل بالإشراف على الفقهاء والمعلّمين الذين كانوا في صحبة البعثة، وتخصيص رواتب لهم تُدفع من واردات ضَيْعة في خوارزم كانت مُلكاً للوزير ابن الفرات[1].

الرّحّالة والدّبلوماسيّ

كان ابن فضلان إنموذجاً فريداً للانسان الدّبلوماسيّ النّاضج النّاصح، الذي مثّل بيئته ودولته وأمّته خير تمثيل، فهو لم يكتفِ بتنفيذ المهمّة الدّبلوماسيّة الدّقيقة التي كلّفه الخليفة إنفاذها فحسب، وإنّما كان حريصاً على تسجيل العديد من الملاحظات الذّكيّة، والمستوعبة، لجوانب من الحياة الدّبلوماسيّة والبروتوكوليّة التي شاهدها في تلك البلاد، مثل طريقة استقبال السّفراء وضيافتهم وإكرامهم، ووصف السّكّان، سِحنهم وألوانهم، وملابسهم وحليّهم ومستوى نظافتهم وذكائهم، وأغطية رؤوسهم، وأشكال مساكنهم وطريقة السّكن، وما يدينون به من المعتقدات، وأكثرها مُغرق في غرابته ووثنيّته. وأسلوب عباداتهم وما يعبدون من الصّور، وعاداتهم الاجتماعيّة والأُسريّة، وتقاليدهم عند الوفاة والدّفن، وما يتّصفون به من القسوة والوحشيّة، واعتيادهم سفك دمائهم، بل تعذيب ذواتهم لأيّ سبب. وتجارتهم لاسيما تجارة الرّقيق، وطرق المواصلات البرّيّة والنّهريّة، وأصناف دوابّ النّقل والسّفر على البِغال والجمال والسّفن والعجلات، وما إلى ذلك من بيئات لاحظ غرابتها فأثارت دهشته.

ولم يكن ذلك غريباً على ابن فضلان، وهو الذي عاش في بيئة حضريّة مختلفة كلّ الاختلاف عمّا شاهده من هذه البيئات القاسية الغريبة التي لم يألف مثلها، فمن الطّبيعيّ أن يشعر بالبون الشّاسع بين ما اعتاده في مدينته وبين تلك الأصقاع الموحشة. فالرّجل كان ابن مدينة السّلام، بغداد، عاش في أفيائها، وخبر تَرَفها وثرواتها وقصورها، فضلاً عن طيب مناخها ورقيّ مستواها الثّقافيّ والاجتماعيّ، متابِعاً- من موقعه- مجريات العالم الإسلاميّ ومحيطه السّياسيّة، مُطّلعاً على أممه وشعوبه وقبائله وما يتّبع من أديان وتقاليد، والأهمّ أنّه كان مطّلعاً على جغرافيّته ومناخه ومسالكه، وما فيه من الأنهار والجبال، وغير ذلك من شؤون يصعب أن تجتمع لدى إنسان واحد. ولقد نجح في مهمّته الشّاقّة والمعقّدة، وأثبت قدرته على تجاوز ما مرّ به في خلالها من صعوبات جمّة، وأسعفته صحّته في أن يصل مُعافى إلى نهاية رحلته، ثمّ ليعود منها قافلاً إلى بغداد.

النّقود

أبدى ابن فضلان معرفة واسعةً بعالم المال، فتناول أسماء العُملات وأجزاءها، ممّا كان متداولاً في البلاد التي مرّ بها في أثناء ذهابه وإيّابه الى بلاد خوارزم والتّرك وروسيا والخزر. كما أبدى ثقافةً واسعةً فيما سجّله من ملاحظات ذكيّة تناولت أسماء النّقود، وأقيامها، ومعادنها، ومراكز ضَرْبها، وتاريخ ذلك، ومناطق تداولها، وما إلى ذلك من شؤون. ذلك أنّ السِّكة كانت تمثّل- ولمّا تزل- الرّمز الأوّل لسيادة الدّولة، فعليها يُضرب اسم الخليفة واسم الأمير اللّذين ضُربت في عهدهما. وكان الوقوف على مثل هذه المعلومات يمثّل أمراً مهمّاً للرّحالة، لمعرفة البِقاع والبلاد الشّاسعة التي يطوي شعابها في زمن رحلته.

وإذ صرّح ابن فضلان في مقدّمة رسالته أنّه قام برحلته هذه في عهد الخليفة المقتدر بالله، فمن المؤكّد أنّ نقود الدّولة كانت تحمل آنذاك جميعاً اسمه، ولكنّنا لا نعلم أسماء مَن ضُربت باسمه من الأمراء أو ممّن سكتت عنهم مصادرعصره، ومن هنا جاءت الشّذرات التي أوردها ابن فضلان نافعةً

(١) رسالة ابن فضلان في وصف الرّحلة إلى بلاد التّرك والخزر والرّوس والصّقالبة سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م، تحقيق د. سامي الدّهّان، المطبعة الهاشميّة، دمشق، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م: ص٦٨.

ومكمّلةً لما أفادتنا بـه تلك المصادر. فقال مثلاً عن بـلاد (بُخـارا) أنّ النّقـود الشّرعيّـة التـي تُضرب فيهـا، كانت من الفِضّة والنُّحاس والشَّـبَه، تُعرف بالغَطريفيّـة، نسـبةً إلى أمير للبـلاد ولّاه الخليفةُ هـارون الرّشـيد، وأنّ فيها- فضلاً عـن ذلك- من الدّراهـم «ألواناً شـتّى»[٢] ومنها تُنقل أو تنتشر في الأقاليم الإسلاميّة الأخرى، بتأثير عوامل عدّة، منها الجِبايات التي تُرسل من الأقاليم إلى الدّولة، وما يرد من التّجّار من مسـكوكات إلى الأسـواق المحليّة[٣]. وأدّت الفوضى التي صاحبت حكم السّـامانيّين إلى تدنّي الدّراهـم الغطريفيّة حتّـى ضُربت بالحديد والصِفـر والآنُك (وهو نوع من الرّصاص)، فكانت كلّ أربعين درهماً منها تساوي دانقاً واحداً[٤].

وثمّة أنواع أخرى من الدّراهم سـمّاها (دراهم خـوارزم)، ويظهـر أنّهـا كانـت تُـضرب فيهـا، ويجلبهـا التّجـار من هنـاك، وهي أقـلّ وزناً من الدّراهـم الغَطريفيّـة بنحـو الثُّلث، إذ تبلغ سـتّة دوانق ونصفاً، وتُضْرَب من معادن شتّى ذكر منها الرّصـاص والنّحـاس، أو خليطاً منهمـا، ودراهم سماها (مزيّفة) و(زيوفا) ولم يتبيّن الفرق بينهما عـلى وجـه الدّقّة، فقـال: «ورأيت دراهـم خوارزم مزيّفـة، ورصاصـاً وزيوفـاً، وصِفراً. ويسـمّون الدّرهم طازجة، ووزنه أربعـة دوانق ونصف»[٥]، ولا نعلـم لِـمَ وصفهـا بالزّيف، وأيـن يجري ذلك التّزييـف. والغالـب أنّهـا كانـت تُـضرب ناقصة العِيـار، مقارنة بدراهم (بُخـارا) المضبوطة. وثمّة قطع نقديّة سـمّاها (كعاب) و(دامـات) لم نتبيّن هويّتهـا، وفـسّر الدّكتور سـامي الدّهّـان، محقّق الكتاب، أولاهما بأنّها الدّانق الصّغير، وسـكت عن الأخـرى[٦]، ولعلّه لم يتبيّن معناها هي أيضاً. وثمّة نـوع آخر من الدّراهـم في (بُخـارا) متدنّي القيمة مـضروب من الصِّفـر وحده، يسـاوي كلّ أربعين درهمـا دانقاً واحـداً، ودراهم أخر، تُعرف باسـم (السّـمرقنديّة) سـتّة منها بدانق، ولـم يوضّح ما الفـرق بين هذين النّوعين بـين الدّراهم[٧]. ويظهر أنّ كثرة هذه الأنواع من النّقود، وتعدّد أقيامها هو الـذي دفع إلى بروز مهنـة جديدة من المتعاملين في هذا المجـال، هم الصّيارفة، الذيـن يمثّلون العمود الفقريّ للأسـواق بما يقدّمونه مـن خدمات كبيرة للتّجـار، فهم الذين يتولّون تبديـل النّقود من فئة إلى أخـرى، فضلاً عن صَرْف السّـفاتج والصّكوك. فقـال: «والصّـيرفيّ منهم هـو الذي يبيـع الكعاب والدّوامات والدّراهم»[٨]. وقد أشـار ابن فضلان إلى وجود شوارع وأسـواق في الجرجانيّة[٩]، كما أشار إلى موضع سوق موسميّة تُقام في كلّ مُديدة في بلاد الصّقالبة، و«يُباع فيهـا المتاع الكثير النّفيس»[١٠]. ومـن تلك الإشـارات ما ذكره في حديثـه عن قبيلة الغزّيّـة التّركيّة: «ووجّه إليه خمسـين ديناراً فيها دنانـير مُسـيّبيّة»[١١] يظهـر أنّها تُنسـب ألى أمير يُدعى المُسـيَّب ضُربت أو ضربها باسـمه، واسـمه يدلّ على أنّه أمير عربيّ حكم تلك الأنحاء[١٢]، وكان يجري التّعامل بها تعاملهم مع الدّراهم. ونقل ابن فضلان رجاء تاجر روسيّ: «أريد أن ترزقني تاجراً معـه دنانير ودراهم كثـيرة»[١٣]، وكان الدّينار من الذّهب يسـاوي مثقالا واحداً ذهباً، فهو أعلى قيمةً من الدّرهم الغطريفيّ المضروب من الفضّة[١٤].

(٢) رسالة ابن فضلان: ص٧٩.
(٣) «الصّيرفـة والجهبـذة في العراق من القـرن الثّاني إلى الرّابع الهجريّ»، أمل عبدالحسين السعدي، رسالة دكتوراه غير منشـورة، كلّيّة الآداب، جامعة بغـداد، بغداد، ١٩٨٠: ص١٢٢.
(٤) رسالة ابن فضلان: ص٧٩.
(٥) المصدر السّابق: ص٨٢.
(٦) المصدر السّابق والصّفحة نفسها.
(٧) المصدر السّابق: ص٧٩.
(٨) رحلة ابن فضلان: ص٨٢.
(٩) المصدر السّابق: ص٨٥.
(١٠) المصدر السّابق: ص١٣٦.
(١١) المصدر السّابق: ص١٠٢.
(١٢) يُنظر: «أحسن التّقاسيم إلى معرفة الأقاليم»، أبو عبد الله محمّد بن أحمد المقدسيّ البشـاريّ، (طبعة ليدن): ص ١٩٩.
(١٣) رحلة ابن فضلان: ص١٥٣.
(١٤) وقـال تقيّ الدّيـن المقريزيّ: «وإنّمـا جُعلت العشرة مـن الدّراهم الفضّية، بوزن سـبعة مثاقيل من الذّهب، لأنّ الذّهـب أُوْزَن مـن الفضّة، وأثقل وزنـاً، فأُخذت حبّة فضّة

الإدارة

تطرّق ابن فضلان إلى بعض شؤون الإدارة في البلاد التي قصدها أو مرّ بها، ففي حديثه عن بلاد الخزر لاحظ أنّ من تقاليد الحكم في هذه البلاد، أنّ لملك الخزر مدّةً معلومةً من الحكم لا تتعدّى أربعين عاما، فإنْ تعدّاها ولو ليوم واحدٍ قتلته الرّعيّة وخاصّته؛ لأنّهم وجدوا في ذلك دليلاً على نقص عقله، وأنّه يحتفظ في قصره برهائن من أبناء الملوك المجاورين يحفظ بهم أمنه[١٥]. ونظام الحكم غامض تماماً، فبينما ينقل ابن فضلان عن ملك الصّقالبة أنّ الخزر من اليهود، يرى مؤرّخون وباحثون أنّهم من أصول تركيّة، وأنّ امتزاجاً حدث بين تقاليدهم الدّينيّة وبعض التّقاليد التّركيّة[١٦]، فإنّ لقبه خاقان لقب تركيّ محض. وللخاقان خليفة يقود جيشه يُدعى (جاوشيغر) والمقطع الأوّل منه (جاوش) تركيّ هو أيضاً. واختصاص الخاقان بلقب (الكبير) يدلّ على وجود أكثر من خاقان آخر غيره، وإن كانوا تحت حكمه، فإنّ ما رواه عنهم لا يدلّ على ذلك. وعلى أيّ حال فشريعتهم ليست من اليهوديّة في شيء. أمّا عاصمتهم فهي مدينة (إتِل) وهي- كما وصفها ابن فضلان- مدينة عظيمة على نهر إتِل، تتألّف من شطرين خَزَريّ وإسلاميّ، يفصل بينهما النّهر، ففي أحد الجانبين يسكن الملك وأصحابه، وهم من الخزر حصراً، بينما يسكن المسلمون في الجانب الآخر، الذي يشكّل مدينةً تجاريةً يُقيم فيها التّجّار الوافدون إلى المدينة. وهذا الشّطر يتمتّع بنوع من الحكم المستقلّ في إدارته، اذ لا تسري عليه أحكام الملك مباشرة، وإنّما يحكمهم شابّ مسلم من أتباع الملك الخزريّ اسمه خز، ولا نعلم ما إذا كان هذا اسمه أم أنّه مخفَّف من اسم خزر. ولم يوضّح ابن فضلان طبيعة الإدارة في الجانبين، كما لم يوضّح طبيعة العلاقات بين هذه الجالية الإسلاميّة وسائر الأقاليم الإسلاميّة. ويقول ابن فضلان: «وأحكام المسلمين المقيمين في البلد، والمختلفين إليهم في التّجارات، مردودة إلى ذلك الغلام المسلم، لا ينظر في أمورهم ولا يقضي بينهم غيره»[١٧].

والخزر بعد هذا مملكة ذات نظام عسكريّ هرميّ تقريباً، تتألّف من جيشين أو فرقتين، على رأس كلّ منهما قائد، واسمه بالتّركيّة سوار، أوّلهما مسلم، والآخر وثنيّ[١٨]. وعلى رأس المملكة ملك يُدعى الملك الأكبر أو الملك الكبير، يتولّى القيادة العامّة للجيش، «فاذا ركب ركب سائر الجيش لركابه، ويكون بينه وبين المواكب ميل، فلا يراه أحد إلّا خرّ لوجهه ساجداً له»[١٩]، ويخلف الخاقان رجلٌ يقال له (جاوشغير) والمقطع الأوّل من اسمه تركيّ محض، ويتألّف الجيش من عدد من السّرايا على رأس كلّ سريّة قائدٌ يتفانى في طاعة مولاه.

تجارة الرقيق

لاحظ ابن فضلان أنّ كثرة القبائل والأقوام في مناطق الخزر وروسيا وبلاد البلطيق، وكثرة الصّراعات بينها، لا سيما بين الخزر والصّقالبة والرّوس، كانت السّبب الأوّل في ازدهار تجارة

=وحبّة ذهب ووزنتا فرجحت حبّة الذّهب على حبّة الفضّة ثلاثة أسباع، فجُعل من أجل ذلك كلّ عشرة دراهم زنة سبعة مثاقيل، فإنّ ثلاثة أسباع الدّرهم إذا أُضيفت عليه بلغت مثقالا، والمثقال إذا نقص منه ثلاثة أعشار بقي درهماً، وكلّ عشرة مثاقيل تزن أربعة عشر درهما وسُبْعَي درهم». تُنظر رسالته «النّقود الإسلاميّة القديمة» في كتاب «رسائل المقريزي»، دراسة وتحقيق: رمضان البدري وأحمد مصطفى قاسم، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٩٩٨: ص١٦٣. ويُنظر كذلك «المكاييل والأوزان الإسلاميّة»، فالتر هِنْتس، منشورات الجامعة الأردنية، عمّان: ص١٠، وابن الرّفعة: الإيضاح والتّبيان في المكيال والميزان، بتحقيقنا، ضمن كتابنا: «دراسات تراثيّة في البلدان والتّراجم وأدب الرحلات»، مكتبة التّفسير للطّباعة والنّشر، أربيل، العراق، ط١، ٢٠١٩م: ٢/ ٤٦٠-٤٦١.

(١٥) رحلة ابن فضلان: ص١٤٥.

(١٦) «مملكة الخزر اليهوديّة وعلاقتها بالبيزنطيّين والمسلمين في العصور الوسطى»، د. محمّد عبد الشّافي المغربيّ، دار الوفاء لدينا للطّباعة والنّشر، الإسكندريّة، ٢٠٠٢: ص١٩٠.

(١٧) رحلة ابن فضلان: ص١٧٢.

(١٨) مروج الذّهب ومعادن الجوهر، المسعودي: ج١/ ١٥١-١٥٢.

(١٩) رحلة ابن فضلان: ص١٧١.

الرّقيــق في تلــك البلدان، حيث كان لملــك الخزر أن يُصادر عُشر ما يصل إلى بلاده من الصّقالبة، «وإذا قــدِمَ الرّوسُ أو غيرُهم من ســائر الأجناس برقيق، فللملك أن يصادر من كلّ عشرة أرؤس رأســاً»[٢٠]. ولــم يكن للرّقيــق أيّ حقّ حتّــى في أن يزوره أحد إذا مــرض، فقال «فاذا مات مملــوك أحرقوه»[٢١]، وأكثــر هــؤلاء كان يُصدَّر الى طالبيــه بأيدي تجّار مخصوصين طلباً للمال، لكنّ هذه التّجارة بالرّقيق كانت تؤدي إلى استنزاف السّكان هناك.

اعتناق الاسلام

كانــت معتقــدات الأقــوام التــي مــرّ بهــا ابن فضــلان، من بين أبرز الأمور التــي أثارت انتباهه، نظراً لطبيعة مهمّته، فركّز عليها وأخذت مســاحة واســعة من رسالته. وقد وصف عبادة بدائيّة لقوم من الأتراك يقال لهم الباشــغرد بقوله: «ومنهم من يزعــم أنّ له اثني عشر ربّاً، للشّــتاء ربّ، وللصّيف ربّ، وللمطــر ربّ، وللرّيــح ربّ، وللشّــجر ربّ، وللنّــاس ربّ، وللــدّوابّ ربّ، وللمــاء ربّ، ولليــل ربّ، وللنّهــار ربّ، وللموتــى ربّ، ولــلأرض ربّ. والــرّبّ الذي في السّــماء أكبرهــم إلّا أنّه يجتمع مع هــؤلاء باتفــاق، ويرضى كلّ واحد منهــم بما يعمل شريكه»[٢٢]، فضــلاً عن عبادتهم عدداً من الأحياء، منها السّمك، والحيّات، والكراكي وغير ذلك.

كان الصّقالبة، وهم السُّلاف الشّرقيّون لا يدينون، حتّــى أوائــل القــرن العــاشر للميــلاد (أي القرن الرّابع للهجــرة) إلّا بمعتقدات بدائيّة، وفي الحقبة الممتدّة بين ســنة ٢٤٩-٢٥٥هـــ (٨٦٣-٨٦٩م)، وجد الرّهبان اليونانيّون طريقهم لنشر المســيحيّة الأرثذوكســيّة بين السُّــلاف في السّــواحل الجنوبيّة للبحر الأسود وفي جنوبيّ روسيا وبلاد القرم.

على أنّه في حدود ســنة ٣٠٧هـ (٩١٩م) أدرك ملــك الصّقالبــة حاجــة شــعبه إلى ديانة رســميّة توحّده في وجه الشّــعوب والقبائــل الوثنيّة، ووجد في الخلافة الإســلاميّة السّندَ الذي يصل بينها وبين العالم الإسلاميّ، ومن هنا نشأت فكرة إرسال ملك الصّقالبة آنذاك سفارة إلى الخلافة في بغداد تطلب عقد تحالف لتحقيق ذلك الهدف، وهو نشر الإسلام بين الشّــعوب التــي لم تعتنقه بعــد، أو اعتنقته في وقت متأخّــر. ويظهر أنّ ابن فضــلان بذل جهوداً كبــيرة في تحقيق تلك المهمّة، فقــال مثلا في حديثه عن بعض زعماء الصّقالبــة الذين هم حديثو عهد باعتناق الاســلام: «ورأينا فيهــم أهل بيت يكونون خمســة آلاف نفس من امــرأة ورجل، قد أســلموا كلّهم، يعرفون بالبرنجار، وقد بنوا لهم مسجداً من خشــب يُصلُّون فيه، ولا يعرفون القــراءة، فعلّمتُ جماعــةً ما يُصلُّون به، وقد أســلم عــلى يديَّ رجلٌ يُقــال له طالوت فأســميته (عبد اللــه)، فقال أريد ان تســمّيني محمّداً، ففعلتُ، وأسلَمَت امرأته وأمّه وولُده، فسُموا كلهم محمّداً، وعلّمته (الحمد لله) و (قل هو الله أحد)، فكان فرحه بهاتين الآيتين أكثر من فرحه بأن صار ملك الصّقالبة»[٢٣].

التّجــارة

تطــرّق ابن فضــلان الى تجــارة الحديد، وكان الحديــد مطلوباً في العالم الإســلاميّ لأغراض عدّة، منها صناعــة السّــيوف غالباً. فتحــدّث عن حدّاد تركــيّ في خــوارزم وقف عــلى بيع الحديــد في بلد الكفّار[٢٤]، ويظهر أنّ معرفته بهذه التّجارة كانت مفيدةً لأرباب تلك الصّناعة.

أظهــر ابن فضلان قــوّةَ ملاحظة حســنة فيما يتصــل بالتّجــارة، فقــدّم تفصيــلات عــن البــلاد والمحطّــات التــي مــرّ بها، وتشــمل أنواع السّــلع والبضائع التي تنتجها، وأكثرها من الجلود والفِراء التي كانــت متوفّرة في المناطق الباردة لا ســيما في روســيا وبلاد الصّقالبة. كما قدّم إشــارات مفيدة عن المدن والبلدات التي مرّ بها في طريقه من بغداد

(٢٠) المصدر السّابق: ص١٤٥.
(٢١) المصدر نفسه: ص١٥٤.
(٢٢) رحلة ابن فضلان: ص١٠٨-١٠٩.
(٢٣) المصدر نفسه: ص١٣٥.
(٢٤) المصدر نفسه: ص٨١-٨٢.

الى تلـك البـلاد، وكان الملـوك يتهادون بهـا طلباً للـدّفء. ويحظى فِراء السّـمور والثّعلـب بمكانة خاصّـة عند ملوك ذلك العـصر وأمرائه، فضلاً عن التّجّار الذين يضطرّون إلى قطع المناطق القارسـة البرد. فقال مثلا عن تجّار الصّقالبة: «وفيهم تجّار كثير يخرجون إلى أرض التّرك فيجلبون الغنم، وإلى بلـدٍ يقال له (ويسـو) فيجلبون السُـمور والثّعلب الأسـود»[٢٥]. ويصف ابن فضلان ملابس الرّوس، فيقول إنّ أكثر ما يلبسـون كسـاء يُشـتمل به على أحد شـقّيه، ويُخرج أحد يديه منه. ومن ملابسهم القلنسوة، وتكون من الدّيباج سموريّة، والخفاف، والقرقـط، والأزرارالذّهب، والدّيبـاج الرّوميّ، كما أعجب بسِـحَن الروس وألوانهم، على الرغم من برد بلادهـم القارس، فقال: «لـم أرَ أتـمّ أبداناً منهم، كأنّهم نخل، شـقر، حمر، لا يلبسـون القراطق ولا الخفاتين»[٢٦].وتفتقر بلاد الصّقالبة إلى الخيّاطين، حتّى أنّ الخيّاط الوحيد الموجود هناك كان بغداديّاً يعمل خيّاطاً للملك[٢٧].

الصّحّـة والمـرض

لاحـظ ابـن فضـلان كثـرة تفشّي المـرض بين الصّقالبـة، فقال: «وما رأيت منهم إنسـاناً يحمرّ، بل أكثرهم معلول، وربّما يموت أكثرهم بالقولنج، حتّـى أنّـه ليكـون بالطّفـل الرّضيع منهـم»[٢٨]. وبالمقابل فإنّه سجل تخلّفهم في معالجة أمراضهم، وجهلهـم التّـامّ بالأدوية، ولا أدلّ عـلى ذلك من أن يطلب ملك الصّقالبة من الخليفة المقتدر أن يرسل اليه كميّةً مـن الأدوية لعدم وجودها في بلاده، وقد حمل ابن فضـلان ما طلبـه[٢٩]. و بلغ من جهلهم أنّهم كانوا يلجأون إلى حرق المرضى بدل العمل على شـفائهم. قال «وإذا مرض منهم الواحد ضربوا له خيمة ناحيـةً عنهم، وطرحوه فيهـا، وجعلوا معه شيئاً من الخبز والماء، لا يقربونه، ولا يكلّمونه ، بل لا يتعاهدونـه في كلّ أيّام مرضه، لا سـيما إن كان ضعيفاً او مملوكاً، فإن برئ وقام رجع إليهم، وإن مات أحرقوه!»[٣٠].

ولَكم أدهشـه جهلهـم التّامّ بـآداب المائدة، فهم لا يأكلـون إلّا اللّحم المشـويّ وحـده[٣١]، وعلى الرّغم من ذلك لفـت نظره أنّ الصّقالبـة كانوا يتناولون طعامهم على موائد صغيرة خاصّة بهذا الغرض.

وقال عن الرّوس: «وهم أقذر خلق الله لا يستنجون من غائط ولا بَول، ولا يغسلون أيديهم من الطّعام، بل هـم كالحمير الضّالّـة»[٣٢]. ويزداد ابن فضلان عجباً حينما يصف طريقة غسل الرّوس لوجوههم ورؤوسـهم وأيديهم على نحو يزيد قذارتهم قذارةً، فيقـول: «لابد لهـم في كل يوم من غسـل وجوههم بأقذر ماءٍ يكون وأطفسـه، وذلك أنّ الجارية تُوافي كلّ يـوم بالغَـداة ومعهـا قصعة كبـيرة فيها ماء، فتدفعهـا إلى مولاها، فيغسـل فيها يديـه ووجهه، وشعر رأسه فيغسله ويسرِّحه بالمشط في القصعة، ثمّ يمتخّـط ويبصق بها، ولا يدع شـيئاً من القذر إلّا فعلـه في ذلـك الماء، فإذا فرغ ممّـا يحتاج إليه، حملت الجاريـةُ القصعةَ إلى الذي الى جانبه، ففعل مثل فعـل صاحبه، ولا تزال ترفعهـا من واحد الى واحـد، حتّى تديرها على جميـع مَن في البيت، وكلّ واحد يمشّط ويتمخّط ويبصق فيها ويغسل وجهه وشعره فيها»[٣٣]. ولنا أن نتأمّل دهشة ابن فضلان ممّـا قُدّر له أن يراه في هذه البلاد، وهو الذي عاش في بيئة بغداد، حيث تنتشر المئات من سقايات الماء والمطاهر في كلّ درب، وشارع، ومسجد، ومدرسة، ورِباط، وحيث يتوجّب الوضوء الكامل خمس مرّات

(٢٥) المصدر نفسه: ص١٣٥.
(٢٦) المصدر نفسه: ص١٤٩.
(٢٧) المصدر نفسه: ص١٢٤.
(٢٨) المصدر نفسه: ص١٤٣.
(٢٩) المصدر نفسه: ص٦٩.
(٣٠) المصدر نفسه: ص١٥٤-١٥٥.
(٣١) المصدر نفسه: ص١١٥.
(٣٢) المصدر نفسه: ص١٥١.
(٣٣) المصدر نفسه: ص١٥٢.

في اليوم، والغسل الشّامل في كلّ أسبوع، وحيث يتأنّق النّاس في مأكلهم وملبسهم وسقايتهم، وحيث الأناقة في إعداد الطّعام وفي تنوّع أصنافه، وفي تناوله أيضاً.

الأطعمة

وصف ابن فضلان الأطعمة في بلاد نهر جيحون حيث يشتدّ البرد جدّاً، فذكر أنّها تتمثّل بما سمّاه (الجاورس)، وهو حَبّ يؤكل مثل الدّهن يشبه الأرز. ومنها النّمكسود، وهو ضَرْب من اللّحم المجفّف[٣٤].

أمّا في بلاد الصّقالبة فوصف أطعمتهم، بما يُفهم أنّها كانت مملّة بل تدعو إلى الغثيان، من ذلك قوله إنّهم «ليس لهم زيت ولا شيرج، ولا دهن بتّةً، وإنّما يُقيمون مقام هذه الأدهان دهنَ السّمك، فكلّ شيء يستعملونه فيه يكون زفراً»[٣٥].

وهم يشربون شراباً مُسكراً مستقطَراً من شجر يشبه النّخل، ولم يجرّبه لأنّه مُسكر يشبه الخمر[٣٦]، وذكر شراب العسل، وقال إنّه يقّدم بعد الطّعام، وهم يسمّونه (السجو)[٣٧]، هذا فضلاً عن نبيذ سمّاه نبيذ العسل[٣٨] ولعلّه (السّجو) نفسه. وقال إنّ لهم «تفّاحاً أخضر شديد الخُضْرة وأشدّ حموضةً من خلّ الخمر، تأكله الجواري فيسمَنّ عليه»[٣٩]. وذكر أنّهم «يعملون من الشّعير حساءً يُحْسونه الجواري والغلمان، وربما طبخوا الشّعير باللّحم»[٤٠].

ولفتت نظره وَفرة شجر البُندق في أرض الصّقالبة، فذكر أنّه لا يوجد في بلدهم شيء أكثر من شجر البُندق، وقال «لقد رأيتُ منه غِياضاً تكون الغَيْضة أربعين فرسخاً في مثلها»[٤١]. وذكر أنّ في غياضهم عسلاً كثيراً، وثمة حَبّ أُعجب بطعمه «لا يشكّ مَن يأكله أنّه رمّان أمليسيّ، فأكلنا منه فإذا به من اللّذة أمر عظيم»[٤٢].

ولاحظ ابن فضلان أنّ الرّوس مسرفون في شرب النّبيذ يشربونه ليلاً ونهاراً[٤٣].

الزّينة والحليّ

اعتادت الخلافة العبّاسيّة إرسال الهدايا الثّمينة الى ملوك الأقاليم الإسلاميّة؛ لتكون وشيجةً تربط بينها وبين هؤلاء الملوك، ووسيلةً لاستمالتهم إليها، وإشعاراً بأهميّتها وبمقدار ثروتها، وما يمكن أن ترفدهم به من الدّعم المادّيّ اذا ما طلبوا ذلك، وهذا ما فعله ملك الصّقالبة حينما طلب المال من الخليفة ليبني حصناً كان في حاحة إليه. وقد حمل ابن فضلان، في ما حمل في سفارته، هدايا تتمثّل بالطِّيب، والثّياب، واللّؤلؤ، وهي موادّ لم تكن موفورة في بلاده على ما يبدو، فغاية ما كان يتحلّى به الصّقالبة الخرز الذي يكون على السّفن، وهم يشترون الخرزة بدرهم، وينظمونه عقوداً لنسائهم. وممّا أتحف به وفد ابن فضلان قبيلة الغزّيّة (الغزّ)، وهي إحدى قبائل التّرك، هدايا متنوّعة تتألّف من ثياب مرويّة (من مرو) وقرطقين وخفاف وخاتم، ومسك وجاورس وزبيب، وجوز، وفلفل، وجلود، وخمسة من أثواب الحرير، وثوب من الدّيباج.

بينما يرتدي سكّان المناطق التي مرّ بها ابن فضلان أنواعاً من الأكسية والملابس الثّقيلة، ففي مدينة (الجرجانيّة) يرتدي النّاس رداءً عرفه ابن فضلان باسم (بوستين)، وهي تشبه (الجبّة) أو (المعطف

(٣٤) المصدر نفسه: ص٨٦.
(٣٥) المصدر نفسه: ص١٣٠.
(٣٦) المصدر نفسه: ص١٢٩.
(٣٧) المصدر نفسه: ص١١٦.
(٣٨) المصدر نفسه: ص١٣٠.
(٣٩) المصدر نفسه: ص١٢٨.
(٤٠) المصدر نفسه: والصّفحة نفسها.
(٤١) المصدر نفسه: ص١٣٠.
(٤٢) المصدر نفسه: ص١٢٨. والأمليسيّ، رمّان حلو طيّب، لا نواة له.
(٤٣) المصدر نفسه: ص١٥٦.

الثّقيـل) المصنوع من جلود الغنم، اتّقاء للابسـها من البرد الشّـديد[٤٤]، أمّا الرّوس فهم يلبسـون في رؤوسهم القلانس، ويحمل كلّ منهم فأساً وسكّيناً وسيفاً، وسيوفهم صفائح مُشَطَّبة أفرنجيّة[٤٥].

ومـن الطّريف أنّـه لم يقتصر عـلى وصف ما كان يتحلّى به الرّجل مـن ملابس وحليّ، وإنّما ما كانت تتحـلّى به المـرأة أيضاً أو تلبسـه ضمن ملابسـها الدّاخليّة[٤٦]. من ذلك أنّ المرأة الرّوسيّة كانت تضع على ثديها «حُقّة مشـدودة»، وهي وعاء من خشب أو عـاج، وذكر ابن فضلان أنّها أمّا من حديد، وأمّا من فضـة، وأمّا نحاس، وأمّا ذهـب، على قدر مال زوجها ومقـداره، وفي كلّ حُقّة حلقة فيها سـكّين مشدودة على الثّدي أيضاً، ولم نرَ وجهاً لهذه الحُقّة إلّا أن تكـون الغايـة منها رفع الثّدي، أمّا السّـكّين فهـي لتجميل الحُقّة فـلا وظيفة لهـا فيما يظهر سـوى ذلك. ولاحظ أيضاً أنّ النّساء كُنّ يضعن في أعناقهـن أطواقاً من ذهب وفضـة، «لأنّ الرجل إذا ملـك عشرة آلاف درهـم صاغ لامرأتـه طَوْقاً، وإذا ملـك عشرين ألفـاً صاغ لهـا طوقـين، وكذلك كلّ عشرة آلاف يزدادُها يزدادُ طوقاً لامرأته، فربّما كان في عنق الواحدة منهنّ الأطواق الكثيرة»[٤٧].

المصادر والمراجع

- «أحسن التّقاسيم إلى معرفة الأقاليم»، أبو عبد الله محمّد بن أحمد المقدسيّ البشاريّ، (طبعة ليدن).

-«دراسـات تراثيّة في البلـدان والتّراجـم وأدب الرحلات»، د.عماد عبد السّلام رؤوف، مكتبة التّفسير للطّباعة والنّشر، أربيل، العراق، ط١، ٢٠١٩.

-«رسائل المقريزي» لتقيّ الدّين المقريزيّ، دراسة وتحقيق: رمضـان البـدري وأحمد مصطفـى قاسـم، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٩٩٨.

-رسالة ابن فضلان في وصف الرّحلة إلى بلاد التّرك والخزر والرّوس والصّقالبة سنة ٣٠٩هـ/ ٩٢١م، تحقيق د. سامي الدّهّان، المطبعة الهاشميّة، دمشق، ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م.

-«الصّيرفة والجهبذة في العراق من القرن الثّاني إلى الرّابع الهجريّ»، أمل عبدالحسـين السـعدي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلّيّة الآداب، جامعة بغداد، بغداد، ١٩٨٠.

-«مـروج الذّهـب ومعـادن الجوهر»، أبو الحسـن علي بن الحسين بن علي المسعودي:ج١.

-«المكاييـل والأوزان الإسـلاميّة»، فالتر هِنْتس، منشـورات الجامعة الأردنية، عمّان (ب.ت).

-«مملكة الخزر اليهوديّة وعلاقتها بالبيزنطيّين والمسـلمين في العصور الوسـطى»، د. محمّد عبد الشّـافي المغربيّ، دار الوفاء لدينا للطّباعة والنّشر، الإسكندريّة، ٢٠٠٢.

(٤٤) المصدر نفسه: ص٨٥.

(٤٥) المصدر نفسه: ص١٤٩.

(٤٦) المصدر نفسه: ص١٥٠.

(٤٧) المصدر نفسه: ص١٥٠.